قصة الطوفان على ما وردت في (رقيمات الخزانة الآشورية):

في أثناء قيام سر هنري لايرد Sir H. Layard (١٨٥٠) بالنبش في خرائب نينوى، ولاسيما في قصر الملك الآشوري: سنحاريب، عثر على غرفتين فرشت ارضيتاهما برقيمات من طين مفخور، عليها مدونات، وهي تعلو عن أرضية الغرفتين بنحو قدم واحدة. وفي سنة ١٨٥٣، عثر مساعده: رسام، في قصر آخر بناه الملك الآشوري: آشور بانيبال ٦٦٨-٦٢٦ ق.م، على مجموعة أخرى من الرقيمات لا تقل عن الأولى خطراً. وهكذا بلغ مجموع الرقيمات الكلي: ٢٥٠٧٣ رقيمة، وهي تكوّن خزانتي كتب ملكيتين على وجه التمام. وكان أن أرسلت الرقيمات إلى انكلترا في سنتي ١٨٥٤/١٨٥٥ بغية فتح خطها والوقوف على محتواها من قبل الاختصاصيين من أمثال رولنصن وهنكس وغيرهما في (المتحفة البريطانية)، لكن ذلك لم يتم إلا بعد ١٥ سنة، على يد جورج سميث، مساعد أمين العاديات الآشورية في (المتحفة) المذكورة وهو الذي عثر على القطع الـ ١١ من رقيمات، قصة الطوفان البابلية(*). أنه اكتشاف رائع عظيم... فاستمع إلى (كلماته) في وصف اكتشافه:

(*) يعين موقع هذا الجبل عادة بجبل (بير عمر كدرون) وعلوه ٩٠٠٠ من الأقدام وهو في جبال زاغروس جنوبي الزاب الأدنى.

التقت عيناي عبارة تفيد بأن السفينة استوت على جبال (نيزير: Nizir) (ارارات التوارتي) ثم يعقب ذلك: سرد إطلاق الحمامة، وعثورها على وكر لها، فعودتها. لقد تبين لي جلياً أني عثرت على قسم من قصة الطوفان الكلدانية، في الأقل[1]. لقد هز هذا مشاعر الناس في لندن وأثار اهتمامهم، وعرضت صحيفة (ديلي تلغراف Daily Yelegraph) مبلغ ١٠٠٠ جنيه كي يسافر (سميث) إلى نينوى بحثاً عن كسارت الرقيمة التي تكمل (القصة). وكان ذلك، واستطاع من أن يكتشف عن الشطر الأكبر من الـ ١٧ سطراً من الكتابة المتعلقة بالعمود الأول الخاص بقصة الطوفان الكلدانية، وهو يلائم المكان الذي كانت فيه (فجوة) على حظ من خطر في تلك (القصة).

إن (قصة الطوفان) . على ما تجلت من هذه كلها . ذات طابع روائي (دراماطيقي) وهي على غرار (القصة التوراتية) سواء بسواء. أنها تذكر (أوتو – نبشتم)، وهو من كان بيته في (شروباك)، على الفرات. وأنه، على غرار نوح، أوحى إليه الإله (أيا: Ea) بخبر الكارثة التي ستحل بالأرض، وأوصاه بأن يصنع فلكاً، كما أعطاه تفصيلات تتصل بحجمها وبنائها. وما أن فعل ذلك حتى صدع بها أمر (أيا)، بقدر تعلق الأمر بشحنها بما يملك جميعاً وبجميع بذور الأرض. وهنا يكمل (اوتو – نبشتم) القصة، قائلاً: (لقد جعلت جميع أفراد أسرتي في (الفلك) وذوي قرباي أيضاً، وحيوانات الحقل أيضاً، ووحوشه، وجميع الحرفيين

---

(1) راجع: Hutchinson: R.W.:A Geentury of Explpration at Nineveh, London, 1929.

اليدويين حملتهم على ولوجها). وما أن قرب يوم (الطوفان) الموعود، حتى أخذ يرقب طلائع الإعصار الآتي: (لقد ملئت رعباً وأنا أنظر إليه، فدخلت (الفلك) وأوصدت بابها. وإلى ربانها (والظاهر أنه ملك) عهدت أمر ذلك البيت العظيم وكل ما يحتوي عليه. ثم يمضي أوتو – نبشتم فيقص قصة الدمار المروع الذي نزل بالأرض والأعاصير التي أطبقت عليها: (لقد كان الماء يهجم على الناس وكأنها معركة ناشبة. وما كان الأخ بمستطيع رؤية أخيه، وما كان الناس ليميزوا من السماء. وأقعت الآلهة على غرار ما يفعل الكلب، ولجئت إلى الجدار. وارتفع عويل (الآلهة عشتار) وكأنها امرأة تعول من نازلة. وندبت سيدة الآلهة بصوت عذب. ودأبت الريح العاصفة على الهياج، وأطبق الإعصار على الأرض كلها. وما أن حل اليوم السابع إلا توقف الإعصار، لقد كانت العاصفة والمعركة التي خيضت على غرار ما يفعل الجيش.

وفي الوقت نفسه استوت (الفلك) على جبل (نيزير) وإثر فتح ثقب الهواء أخذ (اوتو – نبشتم) يقوم بالتحريات التي أجراها (نوح) عينها: (جئت بحمامة وأطلقتها. وطارت ثم عادت، لأنها لم تجد وكراً لها. وجئت بخطاف وأطلقته، وبسبب من عدم استطاعته العثور على وكر له، عاد. وجئت بغراب وأطلقته، وطار الغراب وشهد المياه وهي تغيض. وخاض فيها، لكنه لم يعد. وعلى غرار ما فعل (نوح التوراتي) خرج (اوتو – نبشتم) من (الفلك) وقدم القرابين للآلهة، وتجمعت الآلهة كالذباب، على من كان يقدم القرابين. وقدمت الآلهة عشتار جواهرها الفريدة، التي لا تثمن، حماً وشكراناً، لكن (الإله انليل)،

وهو من كان غضبه سبباً في المتاعب كلها، لم يسر، في بادىء الأمر، من أن تبقى حياة ما، وأخيراً حمله أحد زملائه على إظهار الرحمة وإسباغها على من في (الفلك) راحلين. ورفع (اوتو – نبشتم) وزوجه إلى مصاف الآلهة.

وما أن يبست الأرض. كرة أخرى. وعادت الملكية من عل، حتى علمنا بأنها كانت في كيش أول مرة؛ لذلك ظهر فيها أول اسم في قائمة الملوك بعد (الطوفان)، وهو مؤسس السلالة الأولى التي ظهرت في (كيش). ثم يأتي بعده نحو ٧٠ ملكاً ينقسمون على ١٤ سلالة، ويبلغ مجموعي سني الحكم المقسومة لهم نحو ٣٠,٠٠٠ سنة. ولو عرضنا عن استحالة كون هذه السنين تمثل حياة أولئك الملوك حقاً، إذ ورد أن حكم أحدهم استطال لمدة ١٥٠٠ سنة، فإننا لنعلم من التنقيبات الآثارية أن السلالات. على تتابعها. لم يبلغ أمدها أقصر من تلكم المدة بكثير. فنحن نعرف . على سبيل المثال . أن نهايتهم لا تزيد على أن تطابق تغلب الأكديين على (أرض سومر)، وهذا لا يرجع إلى أوغل زمن إلا إلى سنة ٢٨٠٠ق.م ونحن نعلم أننا لو أخذنا بالبينة التي تظهرها ترسبات الطين في كل من (الوركاء) و (فاره) وعيّنا (طوفان) المدونات بنهاية (عهد جمدة نصر)، فإن نظام السلالات السومرية القديمة يجب أن يضغط ليكون عهداً أمده يتراوح بين ٢٠٠–٥٠٠ سنة. لذلك يجب أن نجتزىء

ونحمل أنفسنا على عدّ نظام أرقام حكم الملوك مبنياً على رمز فلكي من نوع ما[1].

ما انفكت الشعوب الفطرية البدائية والمتحضرة تروى (قصة الطوفان)، كابراً عن كابر، جيلاً أثر جيل، ويلحظ الشبه الكبير بين (قصته) على ما وردت في (الرقيمات الآشورية)، (الأساطير السومرية) وهي الأصل، وقصة نوح التوراتي، ونسترجح أن (إبراهيم) قد نقلها، في رحلته من أور (الكلدان) إلى أرض كنعان. أن مرد الأصل في (القصة)، سومرية كانت أم بابلية، وتوراتية كانت أم آشورية إلى حدوث فيضان عظيم في بلاد ما بين النهرين السفلية استطال زمنه – وصحبه إعصار مدمر ورياح صرصر عاتية وزلزال وتدفق موجات عارمة من (الخليج العربي)، فغمر الماء جميع الأرضين المعروفة لسكان عالم تلكم الأزمنة، ولهذا يفسر خلود (القصة) عبر أجيال.

ومن الطريف أن نلحظ أيضاً بعض آثار (قصة الطوفان) على ما وردت في هذه المصادر الأربعة في التراث العربي أيضاً فالجاحظ في كتابه (الحيوان)[2]: (وقال صاحب الحمام: أما العرب والأعراب والشعراء، فقد أطبقوا على أن الحمامة هي التي كانت دليل نوح ورائده، وهي التي استحقت عليه الطوق الذي في عنقها، وعند ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحلية ومنحها تلك الزينة، بدعاء نوح عليه السلام حين رجعت إليه، ومعها من الكرم ما معها، وفي رجليها من الطين ما برجليها، فعوضت

---

[1] راجع: Seton Lloyd: Twin Rivers p. 20.
[2] ج١ ص ٤٦٩/٤٧٠.

من ذلك الطين خضاب الرجلين، ومن حسن الأدلة والطاعة طوق العنق.

(وقال جهم بن خلف الشاعر العربي، يذكر الحمامة بالنوح والغناء والطوق ويتطرق إلى (دعوة نوح):

وقـد شـاقني نـوح قمريـة   طروب العشي هتوف الضحى
مـن الـورق نوّاحـة بـاكرت   عسـيب اشـاء بـذات الغضـا
تغنـت عليـه بلحـن لهـا   يهيج للصب مـا قـد مضى
مطوقـة كسـيت زينـة   (بـدعوة نـوح لهـا إذ دعـا)

قلت: إن ما ورد على لسان الكتاب والشعراء العرب من نثار معلومات تتصل بقصة (الطوفان) لا يتعدى أن يكون من الإسرائيليات، ومنها هذه، لأن (الطوفان القرآني)لا يحفل بمثل هذه التفصيلات، فالقصص في القرآن، على التحقيق لم ترد لذاتها، بل للعبرة والاعتبار حسب.

تمحيص (فريضة وولي)، المستندة إلى تنقيباته، في الطوفان:

ذكرنا فيما مضى: أن (الراحل سرليناردوولي) المنقب المتمايز كان قد حفر (مجسات) عدّة، خلال تنقيباته في (أور)، قرب سور المدينة الجوانية، وفي ضمن المنطقة الذائعة الصيت المسماة بـ (المقبرة الملوكية)

والتي تعود بزمنها إلى (فجر السلالات)، وأنه، بعد أن نفذ إلى مستويات سكنية عدّة، بلغ طبقة من ترسبات صلصالية نقية خلفتها المياه، سمكها ٩ أقدام، ولا تضم أي شيء تقريباً (*) إن فوق هذه الطبقة، وما تحتها، بشكل مباشر كسارات الخزف[١]، والعديد من اللقط التي تعود إلى (حضارة عبيد) وفي قعر الحفر كانت التربة البكر. لقد كان الآثاري . النابه الذكر . وولي يذهب إلى أن طبقة من ترسبات الطين، سمكها ٩ أقدام، لا شك في أنها مخلفة عن طوفان علو مائه ٢٥ قدماً في الأقل. وفي أرض بسيطة، كأرض ما بين النهرين، إن طوفاناً علو مائه ٢٥ قدماً ليشمل مساحة من الأرضين طولها ٣٠٠ ميل، وعرضها ١٠٠ ميل. وخلص من ذلك كله: إلى حدوث طوفان، لا نظير له، في أي عهد من عهود تأريخ بلاد ما بين النهرين المتأخرة. لذلك عد (الفيضان) الذي طغى على مساكن (عهد عبيد) في (أور) هو (الطوفان) الذي ورد ذكره في (التوراة). وأضاف وولي إلى ذلك: (أن هذا ليس بالأمر العجيب، فإبراهيم كان قد رحل من أور الكلدان – (سفر الخليقة ٣١/١٠) – ومن الممكن جداً أن يحمل معه قصة الطوفان إلى أرض كنعان، وهي

(*) تفصل (هذه الطبقة) بين عصري (عبيد) المبكر والمتأخر. ومعنى هذا أنها تخص العصر الحجري – النحاس نفسه . وفي مواقع أخرى جرى فيها نبش، ومنها (أوروك) وجدت الطبقات الحضارية تتوالى من دون انقطاع: من عصر (عبيد) المبكر حتى المتأخر، ومن دون أن تعترضها طبقة من صلصال مترسب. وليست هناك من بينة تحمل على الاعتقاد بأن التواتر البلدي يؤيد وجود حد فاصل بين (العصر الحجري الحديث) و (عصر فجر التأريخ) وبشكل يحمل على أن (الطوفان) يفصل بين العصرين.

(١) الخزف وقد دهن باللون الأزرق أو الأخضر على غرار ما يشاهد في صناعته المحلية عندنا اليوم.

قصة كانت شائعة ذائعة في أيامه شيوع (قصة فرسان المائدة المستديرة Knights of the Round Table) في انكلترا، أيام القرون الوسيطة.

وفي الواقع أن ما ذهب إليه (وولي) لم ينظر إليه أحد بجد أو بوصفه حقيقة قاطعة فيها سوى (المكتشف) نفسه، وذلك للأسباب الآتية:

١-إن الترسبات التي اعتدها وولي مخلفة عن (الطوفان) شغلت منطقة محددة، على حين عدت الكتب المقدّسة (الطوفان) عالمياً، أي شاملاً للعالم المعروف في أيامه.

٢-إن أريدو[١] التي لا تبعد أكثر من ١٥ ميلاً من أور، وهي أخفض منها إلى حد ما، لم تظهر لنا بأية بينة، أو أثر، على شمولها بهذا (الطوفان).

٣-صحيح إنه قد عثر على ترسبات من طين في مواقع أخرى، لكنها تتباين كثيراً، حسب سمكها، وتختلف في وضعها في السلسال التأريخي chronology. فعلى سبيل المثال أن مستوى الفيضان في (كيش)[٢] يرجع إلى (فجر السلالات) وليس إلى (عهد عبيد) وينطبق ذلك أيضاً

[١] تذهب الأساطير السومرية إلى أنها من مدن ما قبل الطوفان وهي من أقدس المدن السومرية القديمة، بعد (نيور: نفر) وموقعها الحالي (أبو شهرين).

[٢] تل الأحيمر اليوم يمثل موقعها، والتل هو البقية الباقية من زقورة (أينر كورمه: الدار العجيبة أو الموطن المشهور)، وتعود الزقوة إلى هيكل ايلبابا، إله الحرب وزوجه عشتار.

على الترسبات الصلصال الرقيقة التي عثر عليها في (اوروك) و(لكاش) ومدينة أوتنبشتم: شروباك)[1].

لقد عدّت هذه المستويات فيضانات محلية ولا تمثل آثار الطوفان العظيم من ذلك نخلص إلى أن التنقيبات الآثارية التي قام بها (سرلينارد وولي) في (أور) و (الطبقة الصلصال) التي عثر عليها لا يمكن أن تدل. قطعيا. على أنها من مخلفات (الطوفان) العظيم الوارد ذكره في الكتب المقدسة. أنني أعتقد بأن الأساطير القديمة السومرية والبابلية والآشورية التي ذكرت أن طوفاناً عظيماً حدث في الدنيا المعروفة لديهم إنما يرجح تفسيره على أحد الأوجه الآتية:

١-إن مدنا من مدن العراق القديمة دهمها فيضان عظيم أهلك الحرث والنسل وتناقلت خبره الأجيال، واتسع أمره في أذهانها، والخيال الشرقي منفتح بطبعه، حتى انتهى إلى الصورة التي تظهرها الأساطير، ويتلمس أثرها في (العهد القديم).

٢-وقد يكون هذا الفيضان العظيم مسبب عن فعل (الخليج)، نتيجة اندفاع مائه إلى الشمال بتظافر المد العالي والأعاصير حتى غمر مساحات كبيرة من العراق الجنوبي وخرب مدنه ومزارعه، وأهلك خلقاً عظيماً من أبنائه، ثم أخذت الأجيال المتعاقبة تروي خبره جيلاً بعد جيل وهو يتضخم ويتسع، شأنه، بالخيال المنفتح الذي ألمعنا إليه.

---

[1] تقع شوروباك الآن في ففرياب على بعد ٣٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي من أوروك ويسمى موقعها (قاره) وقد أجرى كل من (كولدواي) و (اندره) و (نولدكه) تنقيبات فيها استغرقت المدة الزمنية الكائنة بين ١٩٠٢- ١٩٠٣.

على أن هاتين الفرضيتين لا يمكن أن تفسرا . على الوجه القاطع . (القصة السومرية – البابلية) ولا (القصة التوراتية) المتعلقة بـ (الطوفان) وذلك بسبب الحقيقتين الآتيتين:

١-إن الأساطير السومرية – البابلية تعزو (الطوفان) إلى فعل المطر الهتون الدائب لا إلى فعل الأنهار.

٢-وإن أسطورة الفيضان ليست حكراً على ما تناقلته أجيال بلاد ما بين النهرين، فثمة أساطير كثيرة أخرى شاعت في كثير من بلدان العالم تتحدث عن فيضان عظيم أهلك الحرث والنسل أيضاً.

وعلى ذلك ليس أمامنا إلا تفسير قصة (الطوفان) على أحد هذين الوجهين:

١-إما أن تكون (القصة) أسطورية محضة ابتدعها أناس فطريون وأرادوا من ورائها تغطية حدث عظيم في الماضي.

٢-أو أن الطوفان حدث حقاً ولكن في فجر ما قبل التأريخ ولم يتحقق آثارياً بعد[1].

لقد لاحظ الإنسان في العراق فعل المطر الهتون ذي الوقع الشديد فتناقلت الأجيال ذلك، جيلاً أثر جيل عن طريق الرواية الشفوية، بطبيعة الحال، ثم تجمعت قصصه في قصة كارثة أسطورية واحدة.

---

[1] راجع: .George Roux (Ancient Iraq Chapter 7)

ومما يؤيد أن الذي يخلق أسطورة كهذه هو رغبة الإنسان في تفسير الحوادث الطبيعية التي تنزل به وتذيقه العذاب وردها إلى غضب (الغيبيات) التي لم يستطع عقله البدائي استكناهها، فزعم وجودها ثم نسب إليها ما لم يستطع تعليله. ومما يؤيد ذلك أن (قائمة الملوك السومرية) تقول: إن الملكية، بعد الطوفان (خفضت من السماء) وهذه المرة كان مسرحها (كيش). فالآلهة التي غضبت على الإنسان، ونكبته بالطوفان، جادت عليه بملوك من السماء. وعن (سلالة)[1] ملوك كيش الأولى نلحظ أن الأساطير لا تزال تؤدي دورها، إذ أن فيها ٢٣ حكماً، كل حكم يمتد بمعدل ١٠٠٠ سنة. وإذا ما حذفنا اسماً واحداً من تلك السلسلة، - والظاهر أن الكاتب لم يستطع إلى قراءته سبيلاً، وبعد أن جمعها من رقيمات عتيقة -، فإننا نلحظ أن من بين الـ ٢٢ ملكاً: ١٢ يحملون أسماء سامية، أو ألقاباً سامية من أمثال: (كالبوم: كلب) أو (كالومو: حمل) أو (زقاقيب: عقرب) وهذا يدل على اختلاط السومريين بالساميين بعد (عهد الطوفان) مباشرة.

[1] يلحظ جورج رو أن (سلالة في تأريخ بلاد ما بين النهرين لا تعني (أسرة ملكية) ولكن سلسلة من الملوك التابعين على حكم (دويلة – المدينة) لمدة من الزمان. ولا تذكر قائمة الملوك السومريين إلا الأسر التي حكمت. واحدة تلو الأخرى، على أرض سومر كلها، المصدر السابق.